

بيار بونت Pierre Bonte الباحث الأنثروبولوجي المتوسطي

أ: سعيدي منال وسام

بيار بونت: الإنسان والباحث الأنثروبولوجي:

يعتبر بيار بونت أحد الرموز البارزة في المشهد الأنثروبولوجي الفرنسي والعالمي، من مواليد 25 أوت 1942 في منطقة فيلاند في شمال فرنسا، وتوفي في يوم 4 نوفمبر 2013 عن عمر يناهز 71 سنة. ينتمي إلى أسرة متواضعة، كان جده يشتغل في مناجم الفحم، وكان وقتئذ معروفا باتجاهاته الأديولوجية اليسارية. كما كان أبوه وأمه يشتغلان في ميدان التعليم. وقد التحق كباقي أترابه بالمدرسة الابتدائية ثم الثانوية والتي أهلته للسفر إلى مدينة "ليل" Lille ليواصل دراسته. انخرط في هذه المرحلة في المجال السياسي ضمن التوجه الجمهوري. وانتقل بعد ذلك إلى مدينة باريس أين التحق بجامعة السوربون ومتحف الإنسان الذي كان يشكل في ذلك الوقت امتدادا علميا للمراكز العلمية المهتمة بموضوع الأنثروبولوجيا والاثنولوجيا. إضافة إلى اهتماماته الكبيرة بمجال علم النفس الطفل. ولكن في نهاية الأمر غلب على توجهاته المعرفية تخصص الاثنولوجيا والتي أهلته إلى مرتبة الأستاذ والباحث من مستوى "كلود ليفي ستراوس" وغيره من الذين طبعوا المدرسة الأنثروبولوجية الفرنسية. ولعل ما يميز التوجه العلمي لبيار بونت هو حبه الكبير للدراسات الميدانية واعتماده على المقاربة المقارنة. حيث كان مولعا بالبحث الأنثروبولوجي المقارن، وخاصة في دراساته للثقافات والمجتمعات العربية الإسلامية والإفريقية.

المسار العلمي:

يعد الباحث الأنثروبولوجي بيار بونت النموذج المعرفي القوي الذي جمع بين ثقافتين من الثقافات المتوسطية: الثقافة الأنثروبولوجية الفرنسية والثقافة الأنثروبولوجية العربية والإفريقية في ضوء الثقافة الأنثروبولوجية الغربية. وقد جمعت دراساته تلك الرؤية المعرفية التكاملية بين شمال المتوسط وجنوبه. لقد صنع من مظاهر الثقافات العربية والإفريقية مواضيع خصبة لدراسات الأنثروبولوجية بعيدا عن تلك الرؤية الانومركزية والاستعمارية الغربية التي احتقرت الثقافات الجنوبية مدة من الزمن، حيث قارب مظاهر الثقافات العربية والإفريقية بكل أشكالها وأنواعها من عادات وتقاليد

ومعتقدات مادية ومعنوية رمزية وسلوكية. وتتجلى كل هذه الاهتمامات في كتبه العديدة والمتنوعة
مثل:

- _ Productions et échanges chez les Touareg Kek Gress du Niger ,Institut de d'ethnologie ,Paris,1971
- _ L'élevage et le commerce du bétail dans l'Ader Dotchi Majia ,éditions Niamey ,CNRSH,1973
- _ Le problème des formes et des fondements de la domination masculine :deux exemples ,Les Barouya de Nouvelle Guinée ,Les Bahima D'ankole ,Paris ,Centre d'études et de recherches marxistes.
- _ Dictionnaire de l'Ethnologie et d'Anthropologie ,Editions Presse Universitaire de France ,Paris,1991.
- _ La quête des origines :anthropologie historique de la société tribale arabe ,Editions de la maison des sciences de l'Homme ,Paris,1991.
- _ Epouser au plus proche :inceste ,prohibition et stratégie matrimoniale autour de la méditerranée ,Editions de l'école des hautes études en sciences sociales(civilisations et sociétés),Paris,1994.
- _ Nomades :Editons la Martinière ,Paris,1998.
- _ Sacrifices en Islam, espace et temps d'un rituel, Editions CNRS anthropologie ,Paris,1999.
- _ Emirs et présidents ,figures de parenté et du politique dans le monde arabe, Editions CNRS, Paris ,2001.
- _ Le montagne de fer LASNIM de Mauritanie une entreprise minière saharienne à l'heure de la mondialisation, Editons Karthala, Paris,2001.
- _ Les derniers nomades ,Editions Solar ,Paris,2004.
- _ Peuples des désert d'Arabie ,Editions Hermé Terre de légende ,Paris,2005.

يتحدث الباحث بيار بونت في كتبه المذكورة آنفا عن الواقع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والعقائدي والسياسي العربي والإفريقي وفق أسس علمية مستمدة أطروحاتها من البحث الأنثروبولوجي العلمي الأصيل، حيث استطاع أن ينقل بصدق معرني وأخلاقي التراث الفكري والاجتماعي العربي والإفريقي إلى الثقافة الفرنسية وإلى الثقافة الأوروبية بصفة عامة. فهو لم يقدمها كتراث عجائبي وغرابي موجه للفرجة والتسلية، وإنما حاول أن يدرسها دراسة علمية وفق أصول ومناهج ومعارف وتقنيات أنثروبولوجية. فوقف في هذه الدراسات على الأنماط الفكرية الإفريقية وخاصة ما تعلق منها بالثقافة الإفريقية والعربية والرجل الإفريقي والعربي وما يمتاز به هذا النموذج الفكري والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والعقائدي من خصوصيات مادية ومعنوية وسلوكية والتي صنعت هذه الثقافة الإفريقية والعربية من حيث التفاعل الرمزي الذي التقت فيه ثقافات وعقائد مختلفة المصادر الدينية من إسلام ويهودية ومسيحية والتي استطاع الفكر الإفريقي والعربي أن يصنع منها ثقافة واحدة موحدة في إطار إفريقي وعربي ومتوسطي وإنساني سلمي بعيدا عن الأطروحات الفكرية الكولونيالية التي كانت أصلا تقوم على النزعة العرقية التصارعية المعروف عنها احتقارها لثقافات الجنوب المتوسطي. كما اهتم بيار بونت بالبحث في ثقافات عدد من قبائل النيجر ونيجريا وغينيا وموريتانيا وساحل الصحراوي، وذلك لما تمتاز به من خصوصيات في مجال البناء الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والعقائدي. لقد شكلت بعض العادات والتقاليد التي اكتشفها عند عدد من القبائل مادة خصبة لدراساته الأنثروبولوجية مثل ظاهرة الإنتاج والتبادلات التجارية عند قبائل طوارق النيجر، وتربية المواشي وتجارة الأغنام والبقر بقبائل نيامي، كما تحدث عن مشاكل وأشكال وأسس السيطرة الذكورية في البناء العائلي عند بعض عائلات وقبائل غينيا الجديدة، كما درس وبشكل تفصيلي موضوع الهوية وأصول الانتماء عند عدد من قبائل موريتانيا، وقد اهتم أيضا بالثقافة العربية الإسلامية من خلال دراساته لبعض المظاهر الدينية والعقائدية مثل موضوع الأضحية في الإسلام وعدد من طقوس وممارسات الدينية والاجتماعية في الثقافة العربية الإسلامية. ولم يتوقف عند حدود العادات والتقاليد الثقافية والاجتماعية، فلقد كانت له أيضا اهتمامات بالبناء السياسي للمجتمع العربي حيث درس مفهوم التمثيل الخاص بالأمرأ والرؤساء وصور مفهوم القراة والسياسة.

لعل ما يثير الانتباه في الفكر الأنثروبولوجي لبيار بونت، هي تلك العناية المعرفية بالثقافات العربية والإفريقية الصحراوية، حيث ظل يلاحق موضوعه في العديد من الفضاءات الصحراوية العربية والإفريقية وذلك لاعتقاده الكبير أن هذه الثقافات تشكل وجها حقيقيا صافيا وصادقا وأصيلا من أوجه الإنسان العربي والإفريقي والعالمي الذي ظل بعيدا عن النموذج الثقافي الغربي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ظل الباحث الأنثروبولوجي بيار بونت يؤمن إيمانا كبيرا على أن هذه الثقافات لا زالت أرضا خصبة للدراسات الأنثروبولوجية المحلية بعيدا عن الأطروحات الاستعمارية التي أساءت إليها ودنسها ودنس إنسانها والذي يبقى محورها الأساسي وبامتياز بكل صفاء وصفاء ثقافته المرتبطة ارتباطا عضويا بهويات انتماءاته الإنسانية والجغرافية.

يعد الباحث الأنثروبولوجي بيار بونت رمزا من الرموز المعرفية القوية والصادقة والتي تعبر بحق عن التفاعل الثقافي المتوسطي، حيث أنه لم يبق سجين أطروحات أنثروبولوجية استعمارية والتي ظلت تنظر إلى إنسان وثقافات الجنوب المتوسطي نظرة احتقار. فبيار بونت الذي يتموقع أنثروبولوجيا في الخط المعرفي لمارسل موس Marcel Mauss وكلود ليفي ستراوس Claude Levi Strauss وجورج بلاندييه Georges Balandier وغيرهم من الرموز البارزة في تاريخ الفكر الأنثروبولوجي العالمي، عرف كيف يسخر مؤهلاته العلمية، وكيف يستثمرها استثمارا علميا وأخلاقيا من دون الإساءة إلى الثقافات الجنوب المتوسطي بصفة عامة، والثقافة العربية بصفة خاصة، حيث تندرج انتاجاته العلمية ضمن هذا السياق المتوسطي الذي نريده أن يكون من حيث التأسيس والفاعلية فضاء مشتركا يسعى إلى ترجمة التفاعل المعرفي شمال جنوب وجنوب شمال، ومن ثم، قد نقرأ في الإنتاج الفكري المتوسطي الشمالي صورة الثقافة الجنوبية، كما أننا قد نقرأ في الإنتاج الفكري الجنوبي صورة الثقافة الشمالية، بعيدا عن كل فكر أو أطروحات صراعية وعدائية تحمل انتقادا واحتقارا لثقافة ما على حساب ثقافة أخرى.

وفي هذا الصدد، يمكن أن نقول أن الباحث الأنثروبولوجي الشهير بيار بونت قد يكون من الأنثروبولوجيين المرموقين الذين سجلوا هذه القطيعة المعرفية والمنهجية والموضوعاتية والادبولوجية مع تلك الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية التي صاحبت المرحلة الاستعمارية لعدد من الأوطان العربية والإفريقية والتي ظلت تنظر إلى كل ما هو عربي أو إفريقي نظرة تخلف ونظرة احتقار وبدائية

وتوحش. لقد نزل إلى الميدان الاجتماعي والثقافي العربي والإفريقي، وعاش العرب والأفارقة وقاسمهم حياتهم العملية مدة من الزمن، واكتشف عمق هذه الثقافات وخصوصياتها الروحية والرمزية والطقوسية والمادية والمعنوية والسلوكية المرتبطة ارتباطا عضويا بهوية انتماء هذه الشعوب وذاكرتها وتاريخها العقائدي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفني والأدبي واللغوي الممتد في الزمن العريق. لقد اكتشف بيار بونت عبر هذه السفيرة العلمية في ثقافات العربية والإفريقية قيما إنسانية نبيلة وقدرة معرفية كبيرة في مادة الإبداع والتسيير والفن والفكر.